الكتابة الإبداعية والممارسة النقدية

قراءة في مشروع النقد الألسني

هواري بلقاسم*

يبدو الوعي بالحركة النقدية المعاصرة وإشكالية المنهج في معظم قراءات النقاد العرب وبشكل خاص في سعيهم لتأصيل البحث النقدي عبر استقصاء مظاهر البحث المنهجي في الجهود العلمية للمقاربات النقدية لإعادة تأسيس نظرية نقدية تسمح بكشف وتحديد طبيعة التجربة الجمالية على مستوى الخطاب الابداعي، وذلك ما سعى اليه الناقد العربي عبد الله الغذامي داعيا الى إعادة تفعيل الحركة النقدية وهذا تحديدا مايشير إليه بقوله(ومن الواضح أن النقد الأدبي عندنا قد انحرف منذ زمن طويل عن جادة الصواب وصار علما للقوالب والمضامين، بينما كان أصلا عند فصحاء العرب علما بجماليات النص وكانوا يحرصون على جمال القول وشدة أسره)1 يلح الغذامي على إعادة التأسيس المعرفي للممارسة النقديةبما يتناسب وجمالية النص الشعري ن ولعل مراجعة أطروحات كبار النقاد

وفلاسفة الفن أمثال بارت -كرستيفا -دريدا -جون كوهين -كانط -هيجل - برجسون -إلا دليلا معرفيا يسعى من خلاله الناقد إلى التجاوز والتحرر من مركزية المرجعية واحتكار المعنى والتأويل أو أحاديته متوخيا الصفة العلمية2 للممارسة النقدية والتي تتمل عبر الآليات الآتية.

1 - النسبية في مقابل الإطلاق
2 - الدينامية في مقابل الجمود
3 - الاستنباط في مقابل الإسقاط
4 - الوصفية في مقابل المعيارية

---

*-باحث جزائري (جامعة وهران)

من هنا كان تركيز الغذامي في القراءة على المنهج الألسني بمدارسه المتنوعة البنوية السيميولوجية والتفكيكية محددا ذلك بقوله(وهذا يجعل منهجنا الألسني ضرورةعلمية يحتمها إحساسنا بالحاجة للموضوعية والعلمية في الحكم على الأشياء وفي تحرير منظورنا من سيطرة الذاتية والظرفية)3 هكذا جاء تأكيده على الموضوعية والعلمية التي يتيحها النقد الألسني تأسيسا للحكم الجمالي المبرر.

تسعى هذه الرؤياالحديثة للقراءة عند الغذامي إلى احتواء العديد من المفاهيم النقدية القديمة والحديثة من أرسطو إلى حازم القرطاجني إلى رولان بارت وجاك دريدا، وهذامايجعله يبدوبنويا وسيميائيا وتشريحيا، إذفي سياق هذه المغامرة التشريحية يسعى إلى كشف طبيعة التجربةالجماليةعلى مستوى البنيات أو الوحدات الشعرية المكونة للنص الشعري عند أبي تمام والبحتري والمتنبي ضمن ثنائية المشاكلة والإختلافن كما يسعى ومن منظور ألسني إلى تحديد النص الشعري الذي تتوافر فيه خصاءص وصفات الجملة الشعرية.

وانطلاقا مما سبق يرى أن الفارق بين البحتري من جهة وأبي تمام والمتنبي من جهة ثانية(هو فارق في مفهوم الإبداع وحقيقته، فهما من شعراء الاختلاف وهو شاعر المشاكلة، يسير في الطريق السالكة على مذهب الأوائل)3، وفي ذلك يبدو انغلاق التجربة الشعرية عند البحتري في تبنيه لتجربة الاتباع المتمثلة في عمودالشعر، بينما تتمثل شعرية أبي تمام والمتنبي في تجربة الإبداع التي تكمن في ظاهرة الاختلاف والتجاوز للتجربة التقليدية في كتابة الشعر، وإذا كان خروجا على الطريقة التقليدية، فهو ليس خروجا على الشعر، بل إنه أفق شعري آخر4، عمل على تأسيسه أبو تمام في تجربته الابداعية.

تمثل ثنائية الابداع والاتباع المحور الرئيسي في الحديث عن الدلالة الشعريةن والمتصور النقدي الذي يستند عليه الناقد في التأسيس لمفهوم القراءة، وذلك انطلاقامن مفهوميالعمودية والنصوصية حيث(تقوم العمودية على مبدأالمشاكلة فأما النصوصيةفتقوم على مبدا الاختلاف)5 وهكذا تتجسد ملامح القراءة وفق التصورات الآتية.

النصوصية--- الاختلاف ـالتجاوز ـ الابداع

العموديةالتشاكل ـ الثابت ـ الاتباع

وانطلاقا من ذلك التصور تبدو بنية اللغة الشعرية عند المتنبي وهي حاملة في طياتها طاقة خاصة وشبكة من الدلالات (الشوارد)حيث(يبلغ الأمر بالكلماتأن تكون مادةلجدل بشري مفتوح يجعل الخلق يسهرون جارين وراء هذه الشواردلايمسكون بهاولا يتفقون حولها..

وهذا هو تاريخ المتنبي في ثقافتنا، إنه رجل الاختلاف والشوارد والخصومات، لأنه صاحب نص مختلف ومفتوح)6

لقد أسرت الناقد اللغة الشعرية المختارة التي تقوم على بلاغة التشبيه المختلف، ويتجلى ذلك في قصيدة ..كل من المتنبي والبحتري في وصفهما لمبارزة الأسد فالنص عند المتنبي (هنا نص مفتوح ويوحي بأبعاد دلالية ما بعد نصية، بينما نص البحتري ينتهي عند حدود المنظومة العمودية، ولا يتعدىذلك إلى عضوية النص ووحدته

الدلالية، بينما يأتي نص المتنبي وكأنه خلية حية تتبني من داخلهاتنفتح على ما حولهاوتشكل معه بنية دلالية ووحدة معنوية تفضي إلى جسديةالنص وعضويته)7، من هناتبدو حركة التجاوز والمخالفةالتي تؤكدعليها القراءة عند عبد الله الغذامي، حيث تجاوز المتنبي في تجربته الشعرية التقليد البلاغي إلى دلالة الشبيه المختلف.

لا تقف القراءة هنا عند حدود الاقتباس والتعريف، وإنما سعت الى بلورت رؤية جديدة تقوم على تفكيك النص، وإعادة البناء والتركيب ضمن منظور نقدي مخالف ومغايلر للتصورالمألوفيؤسس لإطلاق قيد النص الشعري، ومعليا من شأن التعدد والاختلافومن هنا جعل الغذامي من المتنبي (شخصيةنصوصية لا تنتسب إلى أي تقليد شعري سائد أوسالف..هذهي بلاغة الشبيه المختلف حيث يعيد المتنبي صياغة سالفه ويعيدإبداعه ويقدم لنا رؤية شعرية جديدة تتمخض عن شخصية نصوصية فريدة ومتميزة، وكل ما فيهافهو شبه يفضي إلى اختلاف)8

كما يؤكدالغذامي أيضاعلى تجربةأبي نواس الشعرية التي تقوم على مبدأ الاختلاف المتصل، حيث تتجسد في كتاباته الابداعيةخاصيةالنص المفتوح أونص الاختصام9 بوصفه شاعرا يبتغي التجديد والتجاوزللمألوف الثابت في الحركة الابداعية العربية.

لقدعبدالله الغذامي إلى التأكيد على شاعرية المتنبي وأبي تمام وأبي نواس، إذ يمثلون شعراء الاختلاف والتجاوز، هذا التجاوز الذي يفسر لنا البعد الجمالي الجديد في الكتابة الشعرية التي تنزع الى الاختلاف، حيث تتداخل دلالة هذا المفهوم مع دلالة النصوصية، وغذ يستبعد الغذامي هنا مايسميه أمبرتو إيكو ورولان بارت مفهوم النص المفتوح والنص المغلق (المقروء/المكتوب)إذ إن فعل القراءة عنده(مفتوحعلى كل ما يفيد ويثري، ولذا فإني أسمي منهجي بالنصوصية أو بالنقد الألسني، وأسمي الاجراء بالتشريحية لأن ما نفعله إجرائيا هو ممارسة التشريح فعليا من أجل الوصول إلى تركيبات النص والبنية الداخلية)9

إن هذا المسلك النقدي وإن يحمل الكثير من مواصفات الحداثة فإنه لا يتجاوز أحياناالعتبات النصية كونه مجرد رصد لمجموعة من المفاهيم والتصورات النقدية التي تمتد من التراث الى الحداثة الغربية، من الجرجاني الى دريدا، التي أفاد الناقد من بعض جوانبه على المستوى النظري والتطبيقي، وقد بين ذلك بقوله(كما فعلنا هذا ليس تفكيكية لأننا لا نبحث عن عيوب الخطاب ولا نسعى لتقويضه، وإنكنا نأخذ بمفهوم الاختلاف، إلا أن هذا المفهوم هو عندي أقرب إلى الجرجاني منه إلى دريدا وهذا لايعني أني أستفيد من دريدا بل إنني أقرأ لهذا الرجل وأستفيد منه، ولكن ذلك لا يلغي الجرجاني ولا يزيحه من ذهني، بل إنه يعمقه في نفسي ويزيده رسوخا في يقيني.كماأننا لا نستطيع أن نقول إن فعلنا هذا هو سيميولوجية خاصة.إنه قريب منها ووثيق الصلة بها ولكنه ليس إياها تماما)10 هكذا يبدو النموذج النقدي الذي يسعى الغذامي إلى تحقيقه من خلاله قراءته للنصوص الشعرية.

انطلاقا من مغامرة المغايرة والاختلاف في القراءة سعى الغذامي الىتحديد طبيعة التجربة الجمالية للخطاب الشعري عبر تصور يعتمد على مجموعة من المفاهيم كالتشبيه المختلف -النصوصية -التشريحية - الاختلاف -المشاكلة، غير ان تطرق الناقد في قراءته لبعض الجوانب الفنية لنماذج شعرية مقتطعة من قصائد

لأبي تمام والمتنبي والمعري والبحتري جعلت الرؤية النقدية بعيدة عن تعيين البنية الابداعية ذات النسق الواحد، وفي بعدهاالجمالي كرؤية متميزة للخلق الأدبي.

كما تمتد قراءة سعيد السريحي لحركة اللغة الشعرية لتميز بين إدراك حقيقة اللغة الشعريةباعتبارها رموزا لدلالات متباينةوبين مصادرة هذه الحقيقة بمصطلحات بيانية كالتشبيه والوصف والتصنع والزخرفة، إذ رفض من خلال ذلك تلك المقاربات النقدية التي تركز على المعنى الوصفي للدلالة، حيث يؤكد على المنهج الذي (يبدأ من الايمان بأصالة اللغة الشعرية وأصالة معالمها ومظاهرها باعتبارها تجليات لنشاط اللغة وحركتها ومن ثمة البحث عن المعنى باعتباره محصلة لتشابك هذه المعالم وتداخلها، فتبرأ اللغة الشعرية بذلك عن أن تكون وحدات ينعزل بعضها عن بعض، وعن أن تكون معالمها مجرد زينة تنفصل عن المعنى)11 من هناكان حرص القراءة على جمال اللغة انطلاقامن تحديد العلاقات التي تؤسس لبنية الخطاب الشعري، إذ يمثل ذلك امتدادا لجهود المقاربات التي تنطلق في دراستها من المرجعية الألسنية الحديثة.

من هنا يستحضر الناقد في قراءته مفاهيم وتصورات تجسد المرجعية اللسانية الحديثة في الممارسة النقدية كالنسق والتوتر، الأضداد، التشاكل، التماثل والتنافر، إذ أفضى به ذلك الى التركيز على القيمة الحقيقية للعمل اللغوي القائم على تداخل اللحظات الشعرية.

لقد ارتبطت الدلالة عند السريحي بالتوتر في قراءته للمتنبي وأبي تمام وأبي نواس إذ يشير الى ذلك من خلال بيت المتنبي الذي يقول فيه:

وقد صفت الألسنة من هموم فمايخطرن إلا في فؤادي (وهكذا فإن المعنى في بيت المتنبي لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال شبكة كبيرة من العلاقات تفضي الكلمات فيها الى بعضها وتتنازع بينها الدلالة على نحو يكشف عن توتر كبير في اللغة)12، كما تبدو هذه العلاقة المتوترة بين اللغة في التركيب الشعري محورا أساسيا في قراءة السريحي لبشار بن برد وأبي تمام والبحتري، معترضا في ذلك على الدرس البلاغي العربي التقليدي13، وما أصابه من جمود، داعيا الى إعادة بنائه على ضوء الدرس الألسني الحديث، إذ يبدو (أن المعنى بعدئذ لا يمكن التأتي إليه من خارج حركة اللغة المتوترة بين التماثل والتضاد ودور الشعر عندئذ هو الكشف عن نشاط اللغة وتراميها نحو ما يمكن أن تفضي اليه من دلالات)14 ينطلق الناقد في قراءته للابعاد الدلالية من التركيز على ثنائية التوتر والتضاد للكشف عن حقيقة اللغة الشعرية التي عجز الحس البلاغي القديم عن إدراكها.

إنه يحاول بهذا المنحى المعرفي في الممارسة النقدية أن يعلي من شأن التعدد والاختلاف شأنه في ذلك شان الطرح النقدي عند جاك دريدا16، ومع ذلك لا ننكر تشبع الطرح النقدي بالطروحات البلاغية القديمة، بالرغم من محاولات النقد في إمكانية تحديد المعنى الذي قصد الشاعر الى إبلاغه الذي اعتمدته جهود بعض القراءات المعاصرة التي وظفت المرجعية اللسانية الحديثة في اجراءاتها التطبيقية17، في محاولة لتطوير الممارسة النقدية و التي اكتفت في أغلب الأحيان بالوقوف على حدود التلقي المباشر، والخضوع للنص الشعري، واستنباط النماذج العامة، حيث تبدو تلك المحاولات أقرب الى روح القراءة النصية التي تعتمد التفسير.

المراجع

1 -عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير.النادي الأدبي الثقافي جدة.ط1 .1958 ص.287

2 -ينظر عبد الله الغذامي: لماذا النقد الألسني. سؤال من نصوصية النص. الموقف الأدبي العدد204 نيسان 1988 س.17 ص.10

3 -المرجع السابق ص.15

4 -عبد الله الغذامي :المشاكلة والاختلاف.المركز الثقافي العربي ط1. 1994 ص.110

5 -ينظر الآمدي: الموازنة1 /397

6 -عبد الله الغذامي: المشاكلة والاختلاف ص.54

7 -المرجع السابق ص.94

8 -نفسه ص.125

9 -نفسه ص.130

10 -نفسه ص.96

11 -عبد الله الغذامي: ثقافة الأسئلة. مقالات في النقد والنظرية. النادي الأدبي الثقافي. جدة. ط. 1992 ص.108

12 - المرجع السابق ص.108

13 - سعيد السريحي: حركة اللغة الشعرية.النادي الأدبي الثقافي .جدة.ط.1999 ص.336

14 - المرجع السابق ص.120

15 -المرجع السابق ص.122. 140. 257

16 - نفسه ص. 322

[1] يقول دريدا في هذا السياق(ما يهمني في القراءات التي أحاول إقامتها ليس النقد من الخارج، وإنما الاستقرار أو التموضع في البنية غير المتجانسة للنص ن والعثور على توترات، أو تناقضات داخلية، يقرأ النص من خلالها نفسه بنفسه، ويفك نفسه بنفسه، ... وأن يفك النص نفسه بنفسه، فهذا يعني أنه لايتبع حركة مرجعية ذاتية، حركة نص لا يرجع إلا الى نفسه، وغنما أن هناك في النص قوى متنافرة تأتي لتقويضه وتجزئته)

جاك دريدا :الكتابة والاختلاف.ترـكاظم جهاد. تق.محمد علال سيناصر. دار توبقال للنشر.1988 ص.61